مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(عبرانيين ١: ١–١٤؛
٢: ١–٣)

أنتَ يا ربُّ في البدءِ
أسَّستَ الأرضَ والسمواتُ
هي صُنعُ يدَيْكَ* وهي
تزولُ وأنتَ تبقى وكلُّها
تَبلى كالثوبِ* وتَطويها
كالرداءِ فتتغيَّرُ وأنتَ أنتَ
وسنوكَ لن تَفنى* ولِمَنْ من
الملائكةِ قالَ قطُّ اجلِسْ عن
يميني حتى أجعلَ أعداءَكَ
موطِئاً لقدَمَيْكَ* أليسوا
جميعُهم أرواحاً خادِمةً
تُرْسَلُ للخدمةِ من أجلِ
الذينَ سيرِثونَ الخلاص*
فلذلك يجبُ علينا أن
نُصغيَ إلى ما سمِعناهُ
إصغاءً أشدَّ لئلاَّ يسرَبَ من
أذهاننا* فإنَّها إن كانتِ
الكلمةُ التي نُطِقَ بها على
ألسنةِ ملائكةٍ قد ثبَتت وكلُّ
تعدٍّ ومعصيةٍ نالَ جزاءً
عدلاً* فكيفَ نُفلِتُ نحنُ إن
أهمَلنا خلاصاً عظيماً كهذا
قد نُطِقَ به على لِسانِ الربِّ
أولاً ثمَّ ثبَّتَهُ لنا الذينَ
سمِعوه.

أحد القديس غريغوريوس بالاماس

تُعيِّد الكنيسة الأرثوذكسية في الأحد الثاني من الصوم الأربعيني لتذكار القديس غريغوريوس بالاماس رئيس أساقفة تسالونيكية العجائبي الذي كان من كبار معلّمي الصلاة القلبية والمدافع عن عقيدتي معرفة الله وتألُّه الإنسان بنعمة الروح القدس. وقد أوضح أن الإنسان يبلغ كمال الحياة المسيحية بسيرة التوبة والتنقي واقتناء الفضائل، لا بالاعتماد على المعرفة العقلية والفكر والفلسفة، فكان له الأثر البالغ في توجيه فكر الكنيسة الأرثوذكسية انطلاقاً من الخبرة الروحية، وتجلّي الإنسان، ومعاينته للنور الإلهي غير المخلوق. وكان الراعي الصالح لأبرشيته، والمدبّر الحسن لرعيته، والطبيب الشافي لأمراضها المستعصية.

وُلد القديس غريغوريوس عام ١٢٩٦ في مدينة القسطنطينية من عائلة شريفة فاضلة. كان والده، أحد أقرب معاوني الإمبراطور أندرونيكوس الثاني، شديد التقى وأصبح راهباً عند تقدّمه في السن. بعد وفاته انصرف غريغوريوس إلى تحصيل العلوم. اعتاد منذ نعومة أظفاره أن يطلب معونة السيدة والدة الإله في الدراسة وفي سائر الأمور، وقد أضحت معينة له على الدوام.

رغم توقعات الملك له بمستقبل باهر ومتابعته لأموره الخاصة عن كثب، غادر غريغوريوس القسطنطينية عند بلوغه العشرين إلى الجبل المقدّس آثوس، حيث استقر في دير فاتوبيدي (Vatopedi) وتتلمذ على يد شيخ قديس ناسك هدوئي يدعى نيقوديمس. هناك سيم راهباً فتقدَّم بسرعة في السيرة الرهبانية الملائكية. وكان في كل لحظة من لحظات الصلاة يضع والدة الإله نصب عينيه عوناً له.

بعد أن أمضى ثلاث سنوات في الطاعة، وعلى أثر وفاة أبيه الروحي، انتقل القديس إلى دير اللافرا الكبير الذي أسسه القديس أثناسيوس الآثوسي. هناك استقبله الآباء بإكرام كبير لسماعهم بجهاده وفضيلته. وقد أقام معهم مدة ثلاث سنوات، تقدَّم خلالها في جهاد اكتساب الفضائل، فأضحت نفسه مسكناً لكل الخيرات

العدد ٢٠٠٨/١٢
الأحد ٢٣ آذار
الأحد الثاني من الصوم
أحد القديس غريغوريوس بالاماس
تذكار القديس الشهيد في الأبرار نيكن وتلاميذه المائة والتسعة والتسعين المستشهدين معه
اللحن الثاني
إنجيل السَحَر العاشر

الإنجيل

(مرقس ٢: ١-١٢)

في ذلك الزمان دخل يسوعُ كَفَرْنَاحومَ وسُمع أنَّه في بيتٍ* فللوقت اجتمعَ كثيرون حتى إنَّه لم يعُدْ موضعٌ ولا ما حولَ الباب يَسَعُ وكان يخاطبهم بالكلمة* فأتوا إليهِ بمخلَّعٍ يحمِلُهُ أربعةٌ* وإذ لم يقدروا أن يقتربوا إليه لسبب الجمع كشفوا السقفَ حيث كان. وبعد ما نَقَبوهُ دلَّوا السريرَ الذي كان المخلَّعُ مضطجعاً عليهِ* فلمَّا رأى يسوعُ إيمانَهم قال للمخلَّعِ يا بُنيَّ مغفورةٌ لك خطاياك* وكان قومٌ مِنَ الكتبةِ جالسين هناك يفكّرون في قلوبِهِمْ ما بالُ هذا يتكلَّمُ هكذا بالتجديف. مَن يقدِر أنْ يغفِرَ الخطايا إلاَّ اللهُ وحدَهُ* فللوقت علمَ يسوعُ بروحِه أنَّهم يفكِّرون هكذا في أنفسِهم فقال لهم لماذا تفكِّرون بهذا في قلوبكم* ما الأيسرُ أن يُقالَ مغفورةٌ لك خطاياك أم أنْ يُقالَ قُمْ واحمِلْ سريرَك وامشِ* ولكن لكي تعلَموا أنَّ ابنَ البشر لهُ سلطانٌ على الأرض أن يغفِرَ الخطايا

الروحية. لكن عطشه إلى «الهدوء» جعله يقصد الصحراء ليقيم في إسقيط (قرية رهبانية) يدعى «غلوسيّا». هناك تعلّم من النساك أموراً دقيقة مختصةً بالصلاة القلبية، فنسك منفرداً واستحق أن يعطيه الله مواهب روحية سامية. لكن أخطار غزوات القراصنة دفعت به، مع رفقة له، إلى الإنتقال إلى مدينة تسالونيكية عام ١٣٢٥. وكان أن استقرّوا في منطقة فيريا (Veria) بعد أن سيم كاهناً بنى مسكناً بمعاونة رفقائه ثم سعى من جديد في سبيل التدرُّب على الكمال الإلهي. كان يعتزل الأيام الخمسة الأولى من الأسبوع، ولا يخرج إلاَّ يومي السبت والأحد للإشتراك بالقداس الإلهي والتحاور مع إخوته من أجل منفعتهم. كان آنذاك في الثلاثين، وكان يجاهد في الأسهار والأصوام رافعاً ذهنه باستمرار نحو الله بالصلاة غير المنقطعة. وكان رفاقه الرهبان يجدون فيه مثالاً للفضيلة. وجهه كان يظهر بشكل فائق للطبيعة مضاءً لامعاً ممجّداً بنار الروح القدس، خاصة عندما كان يخرج من القداس الإلهي أو من هدوء صلاته في القلاية. في هذه الفترة توفيت والدته، فوفد إلى القسطنطينية ليرشد شقيقتيه الراهبتين، اللتين عادتا فلحقتا به إلى فيريا وسكنتا في دير نسائي. بعد هذه المرحلة عاد إلى جبل آثوس ليقيم في منسك القديس سابا، في جوار اللافرا، ليعيش في السكينة الروحية. وسرعان ما انتخبه المسؤولون عن الجبل المقدس رئيساً لدير إسفيغمينو الذي كان يعد مئة راهب، فدبرهم خير تدبير. وقد حصلت في الدير، أثناء رئاسته، أكثر من عجيبة افتقد بها الله الرهبان. لكن القديس، وبسبب عشقه للهدوء، استعفى من رئاسة الدير وعاد إلى اللافرا مكان اعتزاله المفضل.

قد كتب له رهبان مدينة تسالونيكية رسالة طالبوه فيها بالحضور لتقصّي أمر رجل يدعى برلعام جاء من كلابريا وشرع بتحدي الأساس العقائدي لخبرة الصلاة المستمرة ومعاينة النور الإلهي. حاوره القديس لكن برلعام لم يتوقف عن محاربة الكنيسة بالقول والكتابة. فكان أن تصدى له القديس، مدة ثلاث سنوات، بمقالات ملهَمَة من الله، دافع فيها عن تقليد النسك الشريف في كنيستنا وعن منهاج التكلّم باللاهوت على أساس خبرة الحياة بالروح القدس لا بالنظريات الفلسفية والفكرية. ولما استمر برلعام بنشر أفكاره، عقدت الكنيسة في حزيران ١٣٤١ مجمعاً أولاً في هيكل «آجيا صوفيا»، أدانت فيه هذر برلعام، ثم مجمعاً ثانياً في شهر آب من العام نفسه أدانت فيه أكينذينوس المتأثر بأفكار برلعام. وقد أدت وشايات الهراطقة إلى سجن القديس غريغوريوس مدّة أربع سنوات. لكن مجمعاً التأم في شباط ١٣٤٧، دان الهراطقة وأخلى سبيل القديس الذي انتُخب مطراناً على مدينة تسالونيكية في عام ١٣٤٧. وقد أعاد القديس بإرشاده روح الوفاق إلى أهل المدينة بعد أن سكنت الحرب الأهلية التي دامت سنوات.

من جهة ثانية، لم يتوقف أتباع برلعام وأكينذينوس عن بث الإضطراب في الكنيسة، لذا عُقد مجمع في العاصمة في أيار ١٣٥١ ثبَّت فيه القديس غريغوريوس، بشكل باهر ونهائي، عقيدة الكنيسة وإيمانَها القويم، وكان هذا المجمع بمثابة انتصار كبير لاستقامة الرأي.

مرض القديس، ولكن وهن الجسد لم يثنِ عزيمته. وقد أسره الأتراك

قال للمخلَّع* لك أقول قُمْ واحمِلْ سريرَك واذهب إلى بيتك* فقام للوقتِ وحملَ سريرَهُ وخرجَ أمامَ الجميعِ حتى دهِشَ كلُّهم ومجَّدوا اللهَ قائلين ما رأينا مثلَ هذا قطُّ.

تأمل

كما يطرح الصائغ الذهب في الموقد ويتركه يذوب في النار حتى يرى انه صار نقياً، هكذا تماماً يسمح الله أن تجرَّب نفوسُ الناس بالمصائب حتى يصبحوا أنقياء لامعين ويحصلوا على فائدة عظيمة من التجربة. وإذا كان الصائغ يعلم جيداً كم من الوقت يلزم لبقاء الذهب في الموقد، ومتى يجب إخراجه منها حتى لا يتلف ويحترق في النار، فكم بالحري معرفة الله تعالى، فإنه حين يرى نقاوتنا ينقذنا من التجربة حتى إذا ما اشتدت لا نعثر ولا نسقط . فلا نتذمر ولا نجبن إذا أصابنا شيء ما بغتة، بل فلنترك ذلك للعالم الديّان، وهو يمتحن نفوسنا متى شاء، وإنما يفعل هذا لمنفعة المجرّبين وخيرهم. فما يحدث للذهب عام ١٣٥٤ لمدة سنة تمكّن خلالها من الاتصال بالمسيحيين في آسيا الصغرى وتثبيتهم، قبل أن يستعيد حريته من جديد. عام ١٣٥٩، ألّح عليه المرض. فأعلن لبعض المقرّبين وقت وفاته مسبقاً، مشيراً إلى أن أوان رحيله سوف يكون بعد عيد القديس يوحنا الذهبي الفم (١٣ تشرين الثاني)، لأن الذهبي الفم ظهر له في رؤيا وناداه ليأتي إليه وهو الذي يحبه ويود أن يسكن بقربه. وقد توفي القديس في ١٤ تشرين الثاني من ذلك العام عن عمر يناهز الثلاث والستين سنة، أمضى منها إثنتي عشرة سنة في خدمة رئاسة الكهنوت، تاركاً للكنيسة بالإضافة إلى تعليمه الفائق السمو، مستودع رفاته المقدسة التي باتت مصدر أشفية وبركة للكثيرين.

العذراء في لاهوت القديس غريغوريوس بالاماس

القديس غريغوريوس بالاماس هو لاهوتي الصورة الإلهية في الإنسان، ومُبعث عقيدة التألُّه كمبتغىً للمؤمن وغاية لحياته. لا مجال هنا للغوص في لاهوت هذا الأب العظيم، لكننا سنتناول حيزاً واحداً من تعاليمه هو ما يختص بالكلية القداسة والدة الإله. هذا التعليم الذي نحن بصدده هنا نابع من تأمل بالغ الواقعية لسر الأمومة المتألهة الذي صار في مجمع أفسس المسكوني عقيدة: تجسد الكلمة ابن الله تمَّ في البتول مريم وعبرها، فلا يمكن بالتالي فصل شخص المسيح عن شخص أمه. ولطالما رأى بالاماس، مستلهماً تعاليم الآباء سابقيه والتقليد الليتورجي، في والدة الإله صفات كانت تبدو في الكتاب المقدس محصورة بالمسيح وحده. لكنه ما نظر يوماً إلى مريم كشخص منفرد بل كتلك «التي ولدت الإله». سر الأمومة المتألّهة كان في فكر بالاماس، كما في وجدان التقليد الكنسي، وجهاً خاصاً وأساسياً للمسيحانية الأرثوذكسية التي ما انفكت تؤكد على ملء الطبيعتين الإنسانية والإلهية في المسيح. من دون مريم ما كان لاتحاد الطبيعتين أن يتحقق في يسوع.

هكذا، وفي عظات بالاماس العديدة في والدة الإله، تكون مريم «منبع وجذر» المنقولين من أسر الخطيئة إلى حرية أبناء الله، وجسدها الذي استحال هيكلاً لله بات «الترياق الذي يشفي جنسنا من سم الحية». وحدها العذراء مريم، دون كل المخلوقات، أعطي لها أن تتوسّط الطبيعتين المخلوقة وغير المخلوقة. العذراء مريم في تعليم بالاماس هي فاتحة تحقيق الخلاص والنافذة التي منها رأى الأنبياء الكلمةَ متجسّداً وهي سند الشهداء الذين بموتهم الطوعي غلبوا بذرة الموت الموروثة. وفي قراءته لنبوءة إشعياء يرى القديس غريغوريوس أن العذراء مريم هي الملقط التي حمل بها الملاك الجمرة، التي تُزيل الإثم وتُطهّر من الدنس (إش٦:٦)، والجمرة في تقليدنا الشريف هي المسيح نفسه. نشير هنا إلى أن للقديس غريغوريوس من بين مواعظه التعليمية العديدة النفيسة، عظة مطوَّلة يؤيّد فيها تقليداً تاريخياً راج منذ القرن الرابع، لا سيما لدى الذهبي الفم وأفرام السرياني، مفاده أن المسيح يسوع ميَّز والدته بأول ظهور له بعد القيامة. يؤيّد بالاماس هذا التقليد بلا حرج، على أساس أن البتول التي

إذا أُدخل في النار مراراً، هو نفسه يحدث للنفوس الذهبية بفعل التجربة. ان مادة الذهب المطروحة في النار تتنقى أكثر من الأول بتأثير النار، هكذا ذوو النفوس الذهبية يجتازون اتون المصائب المتواصلة ويصبحون أشد لمعاناً من الذهب وأثمن منه.

ليس غريباً ولا جديداً إذا قلنا ان السالك الطريق الضيقة الصعبة يتجشم المشقة، لأن طريق الفضيلة بطبيعتها مليئة بالتعب والجهد والمكايد والأخطار، ولكن عاقبتها الأكاليل والجوائز والنعم التي لا توصف ولا نهاية لها. إذاً عزّ نفسك بهذا، فإن السراء والضراء تزولان مع الحياة الحاضرة وتنتهيان، ولا تفتخر بالمسرات، ولا تحزن وتضعف أمام الشدائد والأحزان؛ فالربان الماهر لا يغفل عندما يكون البحر هادئاً، ولا يضطرب عند هبوب العاصفة. اعلم هذا جيداً، فتجد لنفسك التعزية والثبات!

القديس يوحنا الذهبي الفم

مُيّزت بسكنى الإله في حشاها وحملت بصمت ألم السيف الجائز في نفسها (لو ٢: ٣٥)، لا بد لها أن تكون أول الفرحين بقيامته ورأس الكارزين بظَفَره.

هذه التعظيمات الوافرة التي قدَّمها بالاماس لمريم، وبرغم أسلوبها الوجداني الشاعري، تنصبّ كلها على دور العذراء في التجسّد لا على شخصها معزولاً. إكرام بالاماس لمريم ليس فيه «تأليه» لها – وإلا لكان خروجاً على الإيمان القويم – بل هو شهادة على محورية المسيح في إيمان بالاماس وتقواه، وفهمه لتاريخ الخلاص. إكرام مريم موجّه في جوهره إلى الإنسان الإله الذي ولدته، وكل إكرام ينحصر في شخصها دون سر الأمومة المتألّهة يكون شططاً وخروجاً على الإطار الكتابي والعقيدي.

من أكثر المسائل حساسية في دور مريم في التدبير الخلاصي هي مسألة تهيئة الله لها لاقتبال ابنه الأزلي متجسداً في حشاها، وهي مسألة عالجها القديس غريغوريوس بوضوح ودقة بالغين، وإن أسيء فهمه في هذا المجال أحياناً. فالتي سوف تلد «الأبرع جمالاً من بني البشر» (مز ٤٤:٣) لا يسعها إلا أن تفوق سائر المخلوقات طهراً وبهاءً، «فالله يستحيل عليه أن يتحد بما ليس فائق الطهارة»، على حد قول القديس. لعل البعض رأوا في هذا الإعلان تطابقاً مع عقيدة الحبل بلا دنس التي أقرّها الغرب اللاتيني في القرن العاشر، لا سيما وأن جذر الإعلانين ومرتكزه أن بشرية المسيح المنزهة عن كل عيب لا يمكنها أن تولد إلا من حشا بشري منزَّه عن العيب أيضاً. لكن بالاماس، وعلى بالغ تقواه تجاه والدة الإله، ما حاد عن إيمان الكنيسة بمركزية الخلاص وحصريته في المسيح. العذراء استمدت طهرها وبهاءها، حتى قبل البشارة، من المسيح المزمع أن يولد منها. مريم ولدت من يواكيم وحنة تحت الناموس، فالمجد الذي انسكب عليها هو نتيجة لأمومتها الفائقة الوصف، وليس سابقاً لها. العذراء مريم ماتت ميتة البشر كابنة لذرية آدم، لكنها تمجدت في جسدها الذي استحال بفضل أمومتها لمنبع الحياة، غريباً عن الفساد.

في عظة له عن دخول العذراء إلى الهيكل وحياتها فيه، والتي يعتبرها بالاماس مثالاً لحياة التوحد والهدوئية في الله، يقول إن العذراء ما كانت في الهيكل تتأمل في نعمة نزلت عليها منذ تكوينها، بل في طبيعة خطيئة الجدين الأولين. حياة مريم في الهيكل آلت بها إلى الإيقان بأن ما من مخلوق يستطيع لجم تيار الموت الجارف البشر، وفي جوابها للملاك يوم البشارة إيمان بفعل الروح القدس وبقوة العلي (لو ١:٣٥، ٣٨)، تطهير لها وتهيئة لاقتبال الذي لا تسعه السموات ولا الأرض طفلاً في أحشائها.

بشارة والة الإله

بمناسبة عيد بشارة سيدتنا والدة الإله الكليَّة القداسة يترأس سيادة راعي الأبرشية المتروبوليت الياس خدمة صلاة الغروب عند السادسة من مساء الإثنين ٢٤ آذار ٢٠٠٨ وخدمة القداس الإلهي عند التاسعة والنصف من صباح الثلاثاء ٢٥ آذار في كنيسة بشارة السيدة في الأشرفية.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb